جاك دريدا ومغامرة الاختلاف

المنطق الثالث

محمد حافظ دياب

الكلمات المفتاحية: جاك دريدا، محمد حافظ دياب، المنطق الثالث، التفكيك.

فإذا كانت المناهج التقليدية، بما فيها البنيوية، تطمح إلى تقديم براهين متماسكة لدراسة النص، أو تحديد معناه، فإن التفكيك يبذر الشك في مثل هذه البراهين، ويقوض من أركانها، ويرفض كلا من المعاني اللامتناهية، أو المعنى الواحد، ويرسي، على النقيض، دعائم الشك فيها، بهدف كشف الافتراضات الميتافيزيقية التي تتلبس النص، حين تنظر إلى الأشياء والظواهر على أنها سرمدية، محتذيًا في ذلك محاولة "فردريك نيتشه F. Nietzsche" تجاوز الميتافيزيقا من خلال العمل على هدمها ومقولة معلمه الفيلسوف الألماني "مارتن هيدجر M. Heidegger" عن **تحطيم الميتافيزيقا الغربية**، تلك التي هيمنت على التفكير الغربي، فانشغلت بالتعرف على الجوهر والهيولى والحقائق الراسخة. سبيله الى ذلك تصديق ما يظن أنه بنية النص، وإبراز تضليله الذاتي، وتأثيرات الزيادة والاختلاف والمرجعية والنشر عليه، واستيضاح ما يخفيه من شبكة دلالية، كي ينبعث "فينيق" النص من جديد، وإن بدا في خلاف أو تعارض مع ذاته.

إن "ديريدا" يتصدى لبنية النظام الناجز في النص، محاولًا تفكيك كل العوائق العالقة به، ليواجهه عاريًا، فيقتفي آثاره، ليس في نتاجه النصي فحسب، بل في آلته التي تصنع وتبرر وتخفي هذا النتاج في الآن معًا. هكذا يبدو منطق التفكيك لديه: ليس مجرد قردة للنصوص، بل سعي إلى كشف ميتافيزيقيا الحضور التي ينطوي عليها وجود سلطة أو مركز خارجي يعطي هذه النصوص معناها ويؤسس كذب "مصداقيتها". وهذه السلطة أو المركز الخارجي، يتمثل لديه في تمركز الذات الأوروبية ورفضها للآخر Europeocentrisme وتمركزها حول العقل ورفضها لما يخالفه Logocentrisme وتمركزها حول الذكر وتهميشها للأنثى والخنثى والمنحرف Phallogocentrisme وتمركزها حول الصوت Phonocentrisme وأبعادها للكتابة، بحجة أنها شكل غير صاف من الكلام.

غير أن مسعى "ديريدا" لم يتوجه إلى معارضة هذه المراكز (الذات، العقل، الذكر، والصوت) بمراكز أخرى، وإنما التنبيه إليها وإثارتها، قصد تجنب حبائلها وتفادي معاطبها الميتافيزيقية، الكافية في معيارية مقاييسها الثابتة، ويقينها المكلف، وسكونيتها، بما حدا به أن يلجأ إلى ممارسة التفكيك، كفعالية لتأسيس قوة التشظي من خارطة النص.

وفي محاولة منه لصوغ ممارسته، قام بتطوير مفهوم "الهدم" Destruction لدى "هيدجر"، واستبدله بمفردة "التفكيك" Déconstruction (لا يسميه مفهومًا)، وعمد إلى تطبيقه على العديد من آثار الثقافة الغربية، سواء كانت نصوصًا فلسفية، أو تربوية، أو جمالية.

سؤال التفكيك

وغرض "ديريدا" من ذلك، هو الكشف، داخل هذه الأثار، عن حضور الميتافيزيقا، وقدرة متونها، أو عجزها عن تفكيك هذا الحضور أو هدمه، من طريق الإطاحة بالتفاوتات التراتبية التي أقامتها هذه الميتافيزيقيا، ودحض مزدوجاتها ومفاهيمها الثنائية (الصحة والخطأ، السبب والنتيجة، الذكر والأنثى، الحياة والموت، الكلام والكتابة، الشعور واللاشعور، الجد والهزل، القبلي والبعدي، الخير والشر، المعقول والمحسوس، الجيد والرديء، الروح والمادة، النقي والمخلوط، الدال والمدلول، الحضور والغياب، القبيح والجميل، الإيجابي والسلبي، الداخل والخارج، الجوهر والمظهر، المركز والهامش، الوجود والماهية، البداية والنهاية، الغاية والوعي، الإنسان والخالق...).

وهو إذ يفعل ذلك، يتحاشى الجنوح إلى مغالبة أحد قطبي هذه التراتبية على الآخر، أو قلبها التبسيطي. لذلك بدأ مسعاه في اعتماد ما يقع خارج هذه المزدوجات كلها، تلك التي عملت النصوص على تأكيدها وتثبيت أسسها بواسطة محو تراتبها وتعارضها أي تفكيكها.

تبدو مهمة الفيلسوف هنا هي الطواف بين النصوص، وتعرية بنيتها المخفية، وتبيان اللامقال واللامفكر فيه بها، توسلًا بجينالوجيا "نيتشه" وفينومينولوجيا "هوسرل" وهدمية "هيدجر". كما يتوجب عليه ألا يقيم الحدود بين المقروء (أفلاطون، وأدمون، جابيس، لوفيناس، وآرتو، هوسرل، ومالارميه، ديكارت، وفرويد، روسو، وكلودليفي ستروس، نيتش،ه وبلانشو، دوصوسير، وفيليب سولرز...).

ولدى "ديريدا"، تقوم ضوابط التفكيك على منطلقات متضافرة، أولها: أن النصوص، حتى الفلسفية منها، ليست بسيطة أو واحدية المعنى، بما يعني عدم التعامل معها كأنساق مغلقة، بل مفتوحة، تتضمن قوى متناقضة ومرجعيات متعددة تعرضت لتوجيه صاحبها. وثانيها، وبناء عليه، فمن الضروري إغفال كل ما يعتبر أصلًا مسلمًا به في هذه النصوص، وبذا يفقد الأصل امتيازه الميتافيزيقي. وثالثها، أنها بهذا تحمل في طياتها تعارضًا بين دلالاتها الظاهرة والمستترة، بما يساعد على استنطاقها، والوصول بها إلى دلالات جديدة تتجاوز سياقها الأصلي. ورابعها، أن هذا التعارض ليس مسألة عارضة، أو حدث عن طريق الخطأ، وإنما هو سمة مرتبطة بالنص.

والأمر في هذه المنطلقات يتصل بالنظر إلى النص على أنه وحدة مركبة، تتألف من نصوص أخرى مختلفة بل قد تكون مغايرة تمامًا لأصله، بما يفيد أن التفكيك ليس مجرد نشاط نقدي أو تأويلي يستحضره القارئ من خارجه، ولكن بمسلك معين من داخله، يكشف في الأخير عن خطأ وزيف الاعتقاد بوجود عامية ثابتة أو معنى ناجز له.

هذا فيما يخص ضوابط التفكيك، أما فيما يتعلق بممارسته، فإنها تقوم على ما يسميه "الفقد المزدوج" أو "الكتابة باليدين"، عبر حركتين متكاملتين: قلب Renversement حمولة النص الميتافيزيقية، بواسطة حل شبكة التعارضات والتراتبيات التي أقامتها بين المفاهيم وتبيان زيفها، ثم زحزحة Déplacement ما تم قلبه، حتى لا تخله

الميتافيزيقيا من جديد، وذلك بتطوير التصورات، والحجج التناقضية التي تنطوي عليها ألفاظه وفرضياته ومناطقه المطمورة، وزرع Greffe مفردات جديدة لتطعيمها به.

وينبه "ديريدا" إلى أن استخدام هذه الممارسة، يمكن أن يتم دون أعمال خطة أو صوغ برنامج موحد، أو منهجية صارمة تمت إلى قاموس البحث، طالما ليس هناك مجال محدد للمعرفة والدراية: "فبين المعرفة من جهة، والعطاء من جهة أخرى، بون شاسع، لا حدود ولا مجال لاجتيازه". بل ودون أية محاولة منه لتعريف جامع منه للتفكيك، في ألفاظ وحدود قاطعة ومحددة، انطلاقًا من أن هذا التفكيك أكبر من أن يكون مجرد طريقة أو تقنية لتحليل النصوص.

بهذه الكيفية، يمثل التفكيك ثورة على الوصفية البنيوية، وإن اشتعل السجال حوله فيما إذا كان منهجًا أم طريقةً بحثيةً. إذ ما يزال مريدو "ديريدا" غير متفقين في هذا الصدد، رغم أنه دأب على التحرز في استعماله، وأوضح مرارًا بأنه ليس سوى ممارسة تقوم بمراجعة وتطوير الأسس البنيوية، لا منهج محدد يمكن وصفه باعتباره نزعة فلسفية ناجزة.